

في هذا العدد:

- مصادر أسباب نزول القرآن الكريم من الكتب التسعة "صحيح البخاري" أمودجا أحمد فوزي بن حسن، وسيد عبدالمجيد غوري، وذو الحلبي محمد نور، و نور أماني عائشة شمس الدين
- التقدّم الحضاري من خلال القرآن الكريم يوسف محمد حميد أحمد البقرسي
- الكتب المؤلفة في أسباب نزول القرآن الكريم: دراسة وصفية أحمد فوزي بن حسن، وسيد عبدالمجيد غوري، وذو الحلبي محمد نور، و نور أماني عائشة شمس الدين
- انفرادات أبي عبد الرحمن السلمي القرائية: جمعا وتوجيها أمل بنت عبد الكريم محمدنايز التركستاني
- التطبيقات الأصولية على آيات الربا وآثارها: دراسة تحليلية تطبيقية هبة عبدالسلام نونو، وعبدالرحمن عبد الحميد محمد حسانين
- فقه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الزكاة: جمعا ودراسة أحمد بن حربي ردة المطرفي، وعبدالرحمن عبد الحميد محمد حسانين
- واقع تطبيق استراتيجيات التعلم الذاتي وتحدياته في الجامعات الأهلية العربية الإسلامية: دراسة نوعية بجمهورية بنين من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس الحسن عبد الكريم عبد الله، وموسى جبران العفيفي
- الصيرفة الإسلامية والعملات الافتراضية بين الرؤية الشرعية والتطلعات المستقبلية عابد حمامة، وحبيب الله زكريا، وفهد محمد عباد الشغدري
- الذكاء الاصطناعي ودوره في دعم القرار والفتوى بالمؤسسات المالية الإسلامية: دراسة فقهية تأصيلية تطبيقية على منصة الفتاوى والاستشارات الشرعية بينك البحرين الإسلامي راشد عبدالرحمن أحمد العسيري
- التنمية بين مفهومين: عرض مقارنة لأسس التنمية المستدامة في المنظور الاقتصادي التقليدي والمنظور الاقتصادي الإسلامي وممكناتها في المنظور الإسلامي - الصكوك نموذجاً عبد الله بن سعد البريك، ومحمد بن علي العقلا، وخالد حمدي عبد الكريم
- أدب الداعية في الخطاب مع الذات والآخر: بين النص القرآني والواقع سيف بن سالم بن سيف الهادي
- آثار ظاهرة الإسلاموفوبيا على الأقلية المسلمة في هولندا: دراسة وصفية استيعابية محمد أزيمان، ومحمد السيد البساطي
- البعد القدري للمسجد الحرام وأثره في تعزيز العمل الدعوي: دراسة علمية في الأبعاد الكونية يحيى بن إبراهيم النقي، ومحمد السيد البساطي
- تأثير العقيدة اليهودية في صياغة فكرة المسيح في المسيحية الأولى أنس عبدالرحيم طحان



DOI: <https://doi.org/10.63226/iisj.v10i1.5792>

أدب الداعية في الخطاب مع الذات والآخر: بين النص القرآني والواقع

[The Preacher's Ethics in Discourse with the Self and the Other: Between the Qur'anic Text and Reality]

Saif bin Salim bin Saif Al-Hadi ¹

¹ Assistant Professor at Sultan Qaboos University, College of Education.

* Corresponding Author: s.alhadi@squ.edu.om

الملخص

يتناول هذا البحث سؤالاً محورياً: كيف تسهم اللغة المستخدمة في الخطاب الدعوي في تشكيل أو تضخيم مظاهر الغلو؟، وذلك في ظل تصاعد مظاهر التطرف الديني. ينطلق البحث من موقف نقدي يرى أن الخطاب المباشر للدعاة قد يتسبب -عن قصد أو دون قصد- في توليد مفاهيم متشددة تبتعد عن مقاصد الشريعة. اعتمد الباحث المنهج التحليلي المقاصدي، مستنداً إلى النماذج القرآنية في خطاب الأنبياء، ومقارناً بينها وبين الخطاب المعاصر للجماعات الدينية المتشددة. أظهرت النتائج أن الخلل في اختيار الألفاظ، وانفصالها عن مقاصد النص، يُعد من أبرز أسباب تصاعد الغلو. كما ناقش البحث أثر التوجيه الدعوي في ضبط العقلية الدينية ومخاطبة الذات والآخر، مقترحاً خطاباً بديلاً قائماً على التدرج والرحمة والوضوح المفاهيمي..

الكلمات المفتاحية: الغلو، الخطاب الدعوي، التطرف، أدب الخطاب، مقاصد الشريعة، النص القرآني.

ABSTRACT

This study addresses the central question: How does the language used in religious preaching contribute to the emergence or intensification of extremism? Against the backdrop of rising religious radicalism, the research adopts a critical stance, arguing that preachers' direct discourse may unintentionally promote rigid interpretations that deviate from the objectives of Islamic law. Using a maqāṣid-based analytical approach, the paper compares Quranic models of prophetic speech with contemporary radical religious discourse. Findings show that misuse of terminology and detachment from textual intent are key factors in fueling extremism. The study highlights the preacher's role in shaping religious perception and proposes an alternative discourse rooted in clarity, gradualism, and mercy.

Keyword: *extremism, religious discourse, preaching ethics, radicalism, maqāṣid al-sharī'a, Quranic speech.*

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد :

ففي كل اعصار الحياة يظهر بين مجموعات البشر فئات من الناس تحب أن يكون الدين آصارا يغل حركه الحياة ويشل أركانها المختلفة، وليس هذا قاصرا على أمة دون أخرى، فبنو إسرائيل كما يذكر القرآن الكريم كانوا بين فئتين: فئة قاتلت الأنبياء، وأخرى آمنت بالله؛ لكنها سرعان ما غالت في الدين واتبعت طرائق التشديد، وقد قدر لهذه المجموعة بعد أنبيائها أن تتصدر مشاهد الحياة، وتسوق الناس إلى طاعتها باسم الدين؛ فوضعت على كواهلهم أغلالا ضيقت معها فسحة الحياة، فتوسعت دائرة الحرام وضائق دائرة الحلال، وقد وردت إشارة في القرآن الكريم ترد بني إسرائيل إلى دوائر المبيحات، بعد أن زعمت مجموعاتهم أن المحرمات المقررة من زمن يعقوب عليه السلام: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93]، وقد كان من أهداف ومقاصد رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم رفع هذه الأغلال و تحرير بني إسرائيل من الآصار التي وضعوها على أنفسهم ﴿... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

لم يكن العهد في بداية الدعوة النبوية بعيدا عن هذه الأجواء، فجملة من المتحمسين للدعوة قدم عرضا بالقتال، وطالب النبي ﷺ أن يميل على المجتمع المكي بما توفر من الرجال.

لكن النبي ﷺ كان حريصا على تدريب هذه النفوس على قيادة النفس نحو المعالي، فهي أهم مراحل تأسيس المجتمع عن المطالبة المبكرة بالقتال واجتياح المعارضين؛ لأن ذلك الميل لا تدعمه مقاصد الشريعة ولا تصلح له النفوس المستعجلة، التي لم تأخذ حظها الكافي من التربية الإيمانية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولذلك عندما كان النبي ﷺ جالسا ذاتي ومقربيا من الكعبة، فتقدم إليه نفر من الصحابة رضي الله عنهم، وقد ملأ الحماس قلوبهم، وتداخلهم اليأس من تأخر الإذن بالقتال، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يتوسل إلى الله بالدعاء لإهلاك المشركين.

فكان الجواب بيانا للمقصد الرئيس من الدعوة، وهو الرحمة بالناس، والتماس الدعاء لهم لا عليهم، وأن الصبر كفيلا بكشف مستقبل التوسع في دائرة الإسلام، وانتشار راياته في كل مكان.

فعن أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه قال:

"شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعونا؟ فقال: «فدكان من قبلكم يُؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط

أمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه، ما يصد ذلك عن دينه . والله لِيُتَمَنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»¹.

أما بنو إسرائيل فقد كانوا أصنافاً يعارضون أنبياءهم ويرفعون أصواتهم فوقهم، كما في قولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]. وقد سجّل القرآن الكريم جملة من اعتراضاتهم وتطاولهم على أنبياء الله، منها قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ ۖ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۖ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۖ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ۖ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، و﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 155-156]. فولّد هذا طبعاً سيئاً في نفوسهم، فحتى مع الإيمان أحياناً كانوا يطالبون بالمعجزات لا لزيادة اليقين، بل لمزيد من الترفيه أو لإحداث إرباك في المشهد الإيماني العام. فبينما هم مع موسى عليه السلام، وبعد أن أنجاهم الله من فرعون، سارعوا إلى طلب ما يشبع رغباتهم الدنيوية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ۖ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: 61].

وتكرّر المشهد ذاته مع عيسى عليه السلام في طلب المعجزة: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِئِيُّونَ: يَا عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۖ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 112]. ومثل هذه النفسيات تسمح لاحقاً — عند غياب أجواء النبوة — بالتنطّع في الدين، ومحاولة التصدّر للمشاهد العاجلة، والزعيم بأن الحق هو ما يروونه دون ما سواه. وهي الحقيقة التي انكشفت بعد مبعث عيسى عليه السلام، حينما ناصبه بنو إسرائيل العدا، واعترضوا طريق دعوته، رغم أنه جزء منهم ومن بني إسرائيل. إن التنطّع في الدين، وبناء الأسس الإيمانية على المعجزات والكرامات، سيفجّر لاحقاً جملةً من الانقسامات الخطيرة، ويتصدر المشهد من يدّعي أنه متكلم عن الله ومتحدث باسم الدين، فتغيب الشورى، ويغيب التعقل، ويغيب معه التفكير في مصائر الأمم أو الرحمة بالأمين.

وقد لوحظ أن القتال الذي دار في أفغانستان ترافقت معه جملة هائلة من القصص التي تحكي مشاهد الملائكة وهم يقاتلون في صفوف المجاهدين، وحكايات أخرى تتحدث عن كراماتٍ مبالغٍ فيها. ولم يمضِ على انتصار المجاهدين زمن طويل حتى عاد بعضهم على بعض، واستخدمت تلك الكرامات في الانتصار على المجاهدين أنفسهم. والمشهد نفسه تكرر في سوريا، فما كادت الحرب تنشب بين الشعب السوري وبشار حتى بدأ خطباء بعض الدول يتحدثون عن مشاهد الملائكة والكرامات في صفوف المعارضة، وهكذا حتى ظن المقاتلون أنهم مبعوثون من قِبَل الله، وأن الحرب يجب أن تتوسع.

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه المشركين (حديث رقم 3612).

ولذلك نبه الله تعالى المسلمين على ضرورة التأدب مع رسول الله ﷺ في المناداة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]

وفي رفع الصوت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ • وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ • أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]، فطالبهم أن يتدربوا إيماناً على السمع والطاعة دون اعتراض أو اختيار، أو طلب البرهنة على صدق الإيمان بطلب المعجزات: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا • أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ • وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ صِلًا مَبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ • يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ • فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ • فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا • وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

وهكذا انتقلت رسالة الإسلام تدريجياً من مرحلة الدعوة السرية، ثم العلنية السلمية، ثم الدولة الإسلامية المسالمة، لتعود بعد عشر سنوات إلى مكة فاتحةً، دون أن تُراق قطرة دم أو تُرفع راية إرهاب.

إن الانتصار بالله لا يتم عبر ادعاء الحق المطلق، ولا استجابةً لسياسة معينة تعمل على توظيف الخلاف الإسلامي لتحقيق مكاسب سياسية، ولا التوسل بالنصر عن طريق حكاية الكرامات، ولا محاولة خداع الناس بأن ذلك هو أمر الله، إنما باستنطاق كتب الله، وتأمل مشاهدته التي تسوس المسلمين في تبليغ الحق وحماية الدين. ومن قصرت همته عن فهم المراد فإن علماء المسلمين وضعوا للسلم والحرب فقهاً ناضجاً، يحدد الموقف من العدو، وطرائق التعامل مع الأحداث، والله تعالى يقول:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ • وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ • لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ • وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ • لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].

إن المؤسف اليوم أن تنصدر هذه المجموعات المتشددة في عالم المسلمين، واتباعها طرائق بني إسرائيل في الغلو، حتى رأى عدو الإسلام أنها فرصة سانحة لتقويض العالم الإسلامي من الداخل، وهدم أركانه السياسية والعلمية. فطالما تكون الصدارة لهؤلاء مالياً وإعلامياً، فسوف يُقدّم الإسلام على أنه إرهاب، وأنه يعشق العودة إلى الوراء، ويتنفس في أجواء الماضي البعيد؛ حتى تترسخ قناعة لدى المتابعين من أبنائه بأنه دين رجعي لا يصلح للحياة، وإنما البديل الأفضل هو العلمانية؛ وحتى يُقنع الشرق والغرب من غير المسلمين أيضاً أنه دين غير صالح، ولا يجب أن تتسلل كلماته إلى العقل السليم.

من هنا كان لزاماً على كُتّاب المسلمين أن يوضحوا حقيقة الإسلام، وأن يكتبوا في رسالته العالمية، ومبدئه السلمي، ودعوته الرحيمة، من غير أن تكون هناك ضرورة لعقد المقارنات حتى لا تكون مجرد ردة فعل، ومن غير الوقوف طويلاً عند عقدة المؤامرة، فالوضع الراهن تجاوزها بعيداً.

وفي هذا المبحث الصغير مقارنة حول هذا الموضوع، يركز فيه الباحث على المطالب التالية:

- المقصد من رسالة الإسلام.
- رسالة الداعية فيه.
- المسلم في وسط مجتمع مسلم.
- المسلم في وسط مجتمع غير مسلم.
- ألفاظ الداعية في وصف الآخر وأهمية ذلك:
 - وصف الفرد
 - وصف المجتمع
- التعويل على الزمن في حدوث التغيير.
- الحفاظ على المكاسب الحضارية والإنسانية.

أولاً: إشكالية البحث

تكمن المشكلة في وجود فجوة حادة بين المقاصد العليا للشريعة الإسلامية القائمة على الرحمة ورفع الأغلال، وبين واقع الخطاب الدعوي المعاصر الذي اتسم في كثير من نماذجه بـ الغلو والتنطع. وتتجلى هذه الإشكالية في استخدام لغة دعوية إقصائية، تعتمد على "الإرهاب اللفظي" وتوليد مفاهيم متشددة، مما أدى إلى تشويه صورة الدين، وإحداث انقسامات داخلية، ومنح ذريعة للعداء الخارجي. لذا يطرح البحث تساؤلاً جوهرياً حول كيفية ضبط هذا الخطاب وإعادةه إلى مساره المقاصدي الصحيح.

ثانياً: أسئلة البحث

يسعى البحث للإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما هو المقصد الرئيس لرسالة الإسلام كما تعكسه النصوص الشرعية والتجربة التاريخية للنبوة؟
2. كيف واجه المنهج القرآني والنبوي ظواهر الغلو والتنطع في الخطاب الدعوي المباشر؟
3. ما هي طبيعة المصطلحات والألفاظ التي يستخدمها الداعية المعاصر تجاه "الآخر" (سواء كان مسلماً أو غير مسلم)، وما أثرها في تشكيل العقلية الدينية؟
4. كيف يمكن للخطاب الدعوي أن يحقق التوازن الاستراتيجي بين "الحماس الإيماني" وبين "الرحمة والتدرج" في الإصلاح؟

ثالثاً: أهداف البحث

- يهدف البحث إلى تحقيق النقاط التالية التي تعالج التساؤلات المطروحة:
- تأصيل المقصد العام للإسلام المتمثل في الرحمة، وإحياء فقه السلم، وتحرير الإنسان من الآصار والأغلال.
 - التحليل المقاصدي للنصوص من خلال كشف موقف الشريعة من التنطع، وتوضيح كيفية معالجة النصوص للغلو عبر نماذج الأنبياء.
 - تحديد مسؤولية الداعية اللغوية ببيان أهمية ضبط الألفاظ والمصطلحات في الخطاب المعاصر لتجنب التنفير والإقصاء.
 - تقديم نموذج دعوي بديل وإبراز قيم الحكمة والتوازن في بناء المجتمعات، من خلال الموازنة الدقيقة بين الحزم في المبادئ والرحمة في الوسائل.

دراسات معاصرة عن الغلو في الخطاب الديني:

- 1- "الغلو والتطرف الديني في ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية" المؤلف: د. يوسف عواد العميرة الجهة: مجلة العلوم الإسلامية - الجامعة الأردنية السنة: 2022 ، والفرق: أن هذه الدراسة ركزت على الجانب المقاصدي أيضاً، لكنها كانت أصولية تنظيرية دون التعمق في أدب الخطاب الدعوي أو اللغة المستخدمة، كما في بحثنا.
- 2- خطاب التطرف والغلو في الجماعات الإسلامية المعاصرة: دراسة نقدية" للدكتور فؤاد العابد نشره في مجلة الفكر الإسلامي المعاصر م 2021، قدمت هذه الدراسة تحليلاً اجتماعياً وحركياً لتجارب جماعات مثل داعش والقاعدة، بينما هذا البحث تناول الخطاب من منظور دعوي شرعي لغوي.
- 3- "ظاهرة الغلو في الدين: الأسباب والمعالجات في ضوء السنة النبوية" للدكتورة سعاد عبد الحميد، جامعة الجزائر، نشرت عام 2020م، ركزت على السنة النبوية كمصدر علاج، لكنها لا تفصل في الألفاظ الخطائية وتأثيرها كما فعل في بحثنا.
- 4- "الغلو والتطرف في النص الديني وتأويله: دراسة تحليلية"، للدكتورة زينب المهدي، نشرت 2023م، ركزت على تحليل النصوص وكيف يتم تأويلها لتبرير الغلو، أما بحثنا فركز على أثر هذا التأويل في الخطاب المباشر واللغة الدعوية.
- 5- "سيميائية الخطاب الدعوي المتشدد: دراسة في الدلالات اللفظية والسياقية." للدكتور مروان الكبيسي، نشرته مجلة الدراسات اللغوية والفكرية. وهذه الدراسة تركز على الجانب "السيميائي" (العلامات والرموز)، بينما يتميز بحثنا بالربط المباشر بين هذه الألفاظ وبين "المقاصد الشرعية" و"صناعة" أدب الداعية" في الخطاب مع الذات.

6- "صورة الآخر في الخطاب الدعوي المعاصر: دراسة في نماذج من المنصات الرقمية" للدكتورة منى القحطاني. وركزت على "الصورة الذهنية" للآخر في الفضاء الرقمي، بينما هذا البحث يعوص في "النص القرآني" كمرجعية لتصحيح هذا الخطاب وتخليصه من العنف اللفظي.

المبحث الأول: مقاصد الدين وضبط الحماس الدعوي

المطلب الأول: المقصد الرئيس من رسالة الإسلام.

إن المتأمل في الدوافع التي لزمتم بالكثير من الشباب في أتون المواجهات يجد أنها دوافع إيمانية حماسية، تكشف عن رغبة صادقة في نشر الدين وفرضه قيمًا في حياة الناس، وليس هذا غريبًا؛ فالحماس للدين يصبح ضروريًا لأمرين:

- وجود عوائق كيدية من البشر.
- استصعاب أن تتنكر البشرية لدين ربها وقد خلقها وصورها.

وفي كلا الحالتين يسجل القرآن الكريم نماذج من هذه الأنواع:

فبالنسبة للأول يتحدث القرآن الكريم عن فئة من الشباب آمنوا برهم فزادهم هدى، وهم أصحاب الكهف، وجدوا أنفسهم في مواجهة صارخة مع أقوامهم، فالتف بعضهم على بعض، ثم خرجوا يلتمسون النجاة: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16]، وقد تعرضت هذه المجموعات من الناس لأصناف التعذيب المخيف؛ فأصحاب الأخدود قُتلوا حرقًا: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ﴾ [البروج: 4-5].

ونكّل فرعون بني إسرائيل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

وفي كل هذه الحالات، تتقدم مجموعة من الشباب لطلب الانتقام واسترداد الحقوق المسلوبة، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]. وفي ذلك إشارة إلى رغبتهم في المواجهة، وأن دعوة موسى عليه السلام تأخرت كثيرًا في القضاء على الظلم. فليس السبيل - في نظرهم - هو الدعوة بهذه الطريقة، وإنما الضرب على الأعناق والقضاء على فرعون.

لكن موسى عليه السلام كان يشعر أن هذه الدعوة الحماسية ليست كافية للصبر في المستقبل، وأنها قد تكون واحدة من المشكلات القادمة في طريق نشر الدين " قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " وقد تختلط هذه الدعوة الحماسية بطلب تحرير الأوطان واسترداد الحقوق المغتصبة " أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ائْتِنَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ فَإِنَّا أَكْفَرُ بِمَا نَعْبُدُ رَبَّنَا مِن دُونِ اللَّهِ... " ومرة أخرى تتقدم ملاحظة نبوية على هذا الحماس: ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا

نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿البقرة: 246﴾، بيد أن هذه الملاحظة ستمر بالتجربة العملية لإثبات هذا التوجس، فاعتماد الحماس محفزاً لاتخاذ أي قرار غير مدروس سيؤدي إلى تحمل أعباء ثقيلة قد تقود إلى الفشل " فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهَا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ " وهو نفس الاستنتاج الذي وصف الله تعالى به المتحمسين في بداية الدعوة الإسلامية ﴿وَأَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77]¹.

وأما الثاني: فإن المؤمن المحب يجد صعوبة في تناول الناس على الله وقد خلقهم وصورهم، ثم يتحول هذا الألم النفسي لاحقاً إلى اعتراض حركي، ولذلك كان لا بد من وفرة العلم لصد النفس المحبة عند التهور باسم الله، فالملائكة عليهم السلام وجدوا في أنفسهم صعوبة أن يتناولوا هذا المخلوق الجديد على الله، وأن يسفك الدماء البريئة في مسار الحياة " قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ " وعلى الفور تراجع الملائكة عليهم السلام أمام حكمة الله تعالى ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

إن استصعاب أن يتنكر الناس لله، لا يعني أبداً أن يعمل الإنسان على سحق وجه الحياة، أو يسعى في خرابها، فالله تعالى أراد لكل إنسان أن يعيش حرّاً، وأوكل أمر إصلاحه إلى دعوته وإنذاره، وليس إلى قتله ودماره. فللقتل والقصاص والعقاب شروط وأحكام، وما دام المؤمن يعيش وليس هناك من يمنعه عن عبادة الله فلا يضره شيء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَرَّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۗ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105]

وثمة فارق بين أن يتألم الإنسان لحال الناس كيف انحرفوا عن السبيل، وبين أن يتحول ذلك الألم إلى غضب وانتقام.

1- قال الإمام السعدي: وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها : القيام بما أمروا بما في ذلك الوقت من التوحيد، والصلاة، والزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى " ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تبتيتاً "، فلما هاجروا إلى المدينة وقوي الإسلام كتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك خوفاً من الناس وضعفاً وخوراً " ربنا لم كتبت علينا القتال ؟"، وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا : " لولا أخرتنا إلى أجل قريب " أي : هلا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها بل يكون قليل الصبر " . أ . ه . " تفسير السعدي : (ص188)

أما الأول: فهو الذي يعنيه الله تعالى من الأسف على انحراف الناس: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۗ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: 30].

وأما الثاني: فإن تعريف الناس بالله وتبصيرهم بحجم الخطأ والانحراف لا يتم باستخدام أرواحهم رهاناً على صدق الادعاء. فالنمرود لا يستطيع الإمامة والإحياء بالمفهوم الذي عناه إبراهيم عليه السلام، لكن الانتقال السريع إلى الاختبار الأصعب بتحويل شروق الشمس إلى المغرب ليس اختصاراً لطول الطريق؛ وإنما تعبير عن قداسة النفس الإنسانية، وسرعة الإسلام في حمايتها عندما تكون حقلاً للتجارب والإفساد. فالذين سوف يقتلهم النمرود ليسوا مسلمين، لكنهم بشر لا يسمح الإسلام بقتلهم دون حق، ولا يقبل أن يكون الرهان في إهانة الإنسان. وكما قال الشيخ محمد الغزالي: «إننا نريد أن يطير الناس إلى الله بأجنحة الشوق، لا أن يُساقوا إليه بسياط الرهبة»¹

المطلب الثاني: الحماس الديني بين المشروعية ومخاطر الغلو.

إن الحماس وحده ليس كافيًا لاسترداد الحقوق ما لم يكن هناك منهج يرسم الخطى، ويستعين بالحكمة والزمن في الوصول إلى المطلوب. لكن استبقاء الحماس في نفوس الثائرين ضروري جدًّا، ومن الخطأ محاولة إماتته أو تحويله إلى عجز وبرود؛ لأن نتائج عكسية سترسم نوعًا آخر من الانحراف وهو التفريط. بيد أن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا في إطار دولة تحكمها مؤسسات عادلة، تسخر طاقات الشباب السلبية إلى إيجاب، وتدفع النفوس الثائرة إلى الإنتاج في المجالات الموافقة للطلبات. ففي غزوة أحد كان رأي الشباب الثائر الخروج إلى ملاقات العدو، بينما النبي صلى الله عليه وسلم والشيخ الحكماء يرون أن التترس بالمدينة والتحصن في أسوارها أفضل وسيلة للمواجهة. لكن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يسوس أمته، يضع معالم الدولة الحكيمة، ويرشد القائمين عليها إلى أن لا يخسروا شبابها، فليس من المقبول أيضًا أن تتخلى عن شعاراتها ومبادئها العادلة فيما يعرف اليوم بالدستور. فمبدأ الشورى إذا غلبته الأصوات يصبح - على الأرجح - ملزمًا للحاكم ما دام المستشارون لم يفوضوا الأمر للحكمة والدراسات.

ولذلك يعلمنا القرآن الكريم أن البرلمان قبل أن ترفع أصواتها بالحماس، عليها أن تستدعي الدراسات الميدانية والعلمية الكافية حتى لا تكون أصواتها حزبية أو عاطفية. وهو النموذج الذي ذكره الله تعالى عن أهل سبأ: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: 33]، وقد رأت بلقيس أن خيار المفاوضات هو الأصوب في التعامل مع سليمان عليه السلام.

1- الغزالي، محمد، جدد حياتك، ط. دار نهضة مصر، القاهرة، ص. (45)

هذا الأدب هو الذي تعلمه الصحابة - رضي الله عنهم - ففي غزوة بدر كان الحباب بن المنذر يقول: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلك الله أم هو الحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الحرب والمكيدة»¹ وأدرك الصحابة في أحد أنهم ضغطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج من المدينة، فتقدموا يعتذرون، لكن الوقت قد فات، فالمبدأ قد تقرر. ومن الخطأ التراجع بعد الإمضاء؛ خاصة عندما يتعلق الأمر بقرار استراتيجي، فإن التردد والحيرة بعد اتخاذ القرار نوع من الفساد، يُصيب الجنود بالخذلان، ويبعث في النفس قدرًا من الوهن. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَلْبَسَ لَأَمْتَهُ فَيَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»² إن فتح باب الشورى ضروري لاستيعاب الأصوات المطالبة بالحقوق، واعتبارها - أي الشورى - ملزمة، مطلب أساسي حكيم، ومطلب أممي ضروري³. لكن تنقيف الشعوب باعتماد الدراسات العلمية الدقيقة في قاعات البرلمانات ضروري أيضًا حتى لا تكون الدولة لعبة الأمزجة والأحزاب. والذي يحصل في بلدان المسلمين هو غياب الشورى، وسوق الناس طوعًا أو كرهًا لتقبل القرارات، أو اعتبار البرلمانات حزبية تُعَلِّب مصلحة الحزب على مصلحة عموم الناس. ويجدر بنا هنا أن نشيد بالتجربة المغربية في استيعاب الربيع العربي، عندما نادى الملك محمد السادس شعبه أن يختار حكومته، فكانت المغرب بحق من البلدان التي امتصت حماس الشباب، واستثمرت طاقاتهم في خدمة البلد عبر الحكومة التي يرتضونها، بغض النظر عن المسميات. وهي قريبة من التجربة العُمانية الناجحة أيضًا. أما غيرها من الدول فقد استخدمت السلطة العسكرية والدينية في قمع الشعوب، وتدخلت دول أخرى في نصره شعب لم يكتمل لديه الوعي السياسي والأمني، ثم تخلت عنه وتركته للضياع، فتشتتت دول واختفت.

1- ابن هشام، السيرة النبوية (ج2، ص 249).

2- أخرجه أحمد في المسند (22/ 343) برقم (14392)، وأبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب في لبس الأمة، برقم (2590)، والنسائي في السنن الكبرى (8/ 42) برقم (8586)، وابن حبان في صحيحه برقم (7031)، والحاكم في المستدرک (2/ 142) وصححه ووافقه الذهبي.

والحديث من رواية محمد بن إسحاق عن الزهري، وقد صرح بالتحديث عند أحمد، فالإسناد حسن.

3- ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار عن الآية "وشاورهم في الأمر" العام أي الأمر الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلام والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية، أي دُم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة - غزوة أحد - وإن أخطأوا الرأي فيها فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس، وإن كان صواباً لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة)، فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر على الأمة من تفويض رأيها على الرجل الواحد أشد وأكبر.

المبحث الثاني: أدب الخطاب الدعوي وضوابط التعامل مع الآخر

المطلب الأول: ألفاظ الداعية:

كانت بدايات القرن العشرين الميلادي تمثل فورة الصحوة في عالم المسلمين، تصدّر فيها مجموعة من الدعاة العلماء، رفعوا راية الوحدة ونادوا بعودة الناس إلى الدين. لكن الذي ميّزها أنها كانت تستقي من حياض العلم، وتخرج من أرحام المدارس الشرعية الحكيمة، من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وسيد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، وشكيب أرسلان وغيرهم.

كان هؤلاء يدركون وضع الأمة جيداً، ويدركون قدراتها في مواجهة الاستعمار العسكري والعلمي. فمنهم من اشتغل بالجانب السياسي عبر دعوة الأمة إلى الوحدة من خلال الجامعة الإسلامية كجمال الدين الأفغاني، ومنهم من اشتغل على الجانب العلمي ومحاولة شرح الإسلام بالطريقة التي تحفظ له تقدمه في مواجهة المنهج الغربي كالإمام محمد عبده، ومنهم من اشتغل على الجانب الإعلامي والصحافي في نشر رسالة الإسلام وتوعية الشباب كرشيد رضا والحجوي النعالي في المغرب.

وقد تعرض بعض هؤلاء لانتقادات من خصومهم، أو من الذين استبطؤوا حركة التغيير، ونادوا بمسلك آخر. ولا أجدني مضطراً هنا لمناقشة الاتهامات أو ذكرها¹، وإنما كانت مرحلة من مراحل الصحوة الإسلامية.

لم يمض وقت طويل حتى تأسست قاعدة الدعوة الحديثة فتشكلت في الأمة صور دفعت بأعداد الشباب المسلم إلى مسالك مختلفة في معالجة الواقع، ولعل أشدها أثراً - بحسب الشيخ القرضاوي - تلك الدكتاتورية الطاغية في التعامل مع الصحوة الإسلامية، وتكون فئة من الشباب تجهل التاريخ وسنن الله في الكون والحياة، والانطلاق في التغيير على ضعف في العلم الشرعي ومقاصد الدين، فاتبعوا المتشابهات من النصوص وتركوا المحكمات، وتشددوا في الإنكار على المسائل الخلافية واعتبروها ديناً، ورفضوا أخذ العلم ممن خالفهم، أو أخذ العلم من شيوخه أصلاً، فصار لكل جماعة شيخها، ولكل فريق علماؤه، وكثير من هؤلاء عصاميون يفهمون الدين بعيداً عن تأصيل العلماء²، ثم وجد بعض هؤلاء أنفسهم أمام مجتمعات لا تعمل بشريعة الله ولا تنتبه لرغائب الاستعمار، بل نظروا إليها على أنها أبواق الغرب ومزارعه السياسية في الأوطان. ونظروا إلى الشعوب التي ضاعت بسبب الجهل على أنها شعوب مبتدعة، فكفرها بعضهم واستباح دماءها بحجة الوحدة السياسية، فسلبوا وغنموا،

1- أبرزها الحيانة، والعمالة للماسونية - وخاصة الأفغاني - ، تميع الدين، وتمجيد السلاطين، الخروج عن نهج السلف في اعتماد النظام السياسي الغربي، وغيرها، وقد اعتبر بعضهم الصحوة المتطرفة ردة فعل لهذا الفريق من رجال الصحوة.

2- ينظر : يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، (القاهرة: دار الشروق، ط3، 2001م)، ص ص 45-52 (بتصرف). وينظر أيضاً للمؤلف: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988م).

ولا تزال مصطلحات مثل "المجتمع الجاهلي" و " دار الكفر" و " مجتمع المنافقين " و"مبتدع" و"كافر" و "ضال" و" أهل الأهواء"¹، لا تزال منتشرة عند بعض الطوائف ويتم الاستعانة بها في إقصاء الآخر مرتين:

- مرة عندما يحدث النزاع بين المذاهب كما هو الحال عند التيار السلفي والشيعة.
- ومرة عند الجماعات المسلحة التي ظهرت بعد الحرب في أفغانستان، وقبلها الجماعات التي ظهرت بعد النكسة المصرية مثل الجماعة الإسلامية، وجماعة الجهاد، وجماعة الهجرة والتكفير، ثم القاعدة، وأنصار السنة، وداعش وغيرها من الحركات التي لا تزال تنشط في مناطق مختلفة.

ومن المؤسف جدا أن حركة التغيير عند هؤلاء لم تقتصر على استخدام القوة إنما استخدمت الإرهاب اللفظي في إقصاء الآخر، ووصفه بالكفر والخيانة والنفاق في خطاباتها المباشرة أو المكتوبة، كـ " المجتمع الجاهلي" وهو المصطلح الذي استخدمه الشهيد سيد قطب.

وقد قررت سابقا أن الحماس لا يبنى الإيمان، فإن معظم هؤلاء ينطلقون من دوافع إيمانية، إلا أن الخروج عن أدب القرآن الكريم في مخاطبة الآخر أدى إلى نتائج عكسية.

فالنفس البشرية لا ترضى أن تخاطب باسم الله، وفي نفس الوقت يتم توجيهها ووصفها بأبشع الألفاظ، لأن ذلك يبني أمامها سجايا نفسيا غليظا يمنع وصول أشعة الهداية إليها، ولذلك نبه الله تعالى نبيه إلى ضرورة ضبط النفس أمام وقع الهزيمة ففي أحد بدأ الغضب يشتد على المخالفين مما رفع وتيرة القلق من سرعة رمي ألقاب الاتهام " منافقون" أو " فاسقون" فقال سبحانه: " وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ" وليس غلظة القلب وحدها التي تفض الناس؛ إنما لا بد أيضا ضبط النفس على مبدأ العفو والمسح على الجراح، والإفادة من الأخطاء، وتحويل النكبة إلى فوائد استراتيجية وإيمانية للمستقبل، فقال سبحانه " فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ" والتنويه بالشورى، والوصية باستمرارها قطع لبعض الظنون التي قد تحملها فشل المعركة وتبعات الهزيمة.

يذكر منتصر الزيات عن أحد المخلصين مع الدكتور أيمن الظواهري عندما كانوا في السودان وهو كان رجلا مؤمنا غيورا على مبادئ جماعة الجهاد، ويمثل في الوقت نفسه الذراع الأيمن للدكتور أيمن إلا أن المخابرات المصرية استطاعت أن تخترق ابنه الصغير وكان عمره خمس عشر سنة فأخذت منه بعض الأسرار المتعلقة بعمل الجماعة في السودان. وعلى الفور أبلغت المخابرات السودانية الدكتور أيمن الظواهري بالتفاصيل، فكلف اللجنة الأمنية ثم الشرعية بتنفيذ إعدام الصبي أمام أبيه فكانت ضربة صارخة في جنب الجماعة أدت إلى انفصال الأب. إن السرعة في إتهام المسلم بالنفاق والكفر ليست محمودة شرعا ولا يصح اللجوء إليها إلا بينه يقول النبي صلى الله عليه وسلم " قال إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما"²

1- ينظر : نسيم، بملول، الموسوعة الكبرى للجماعات الإسلامية المسلحة، 80، 81 وما بعدها.

والعجيب أن مجتمع المدينة أيام النبي صلى الله عليه وسلم يكثر فيه المنافقون حتى شغلوا أجزاء من القرآن الكريم، ومع ذلك ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى أحدهم بلفظة النفاق ولا يضع تلميحاً يدل عليه. ففي حادثة عكاشة يذكر العلماء أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سبقك بها عكاشة» يكشف عن معنى خفي في هذا الاعتذار، وهو أن ذلك الرجل كان منافقاً¹، وفي حوادث أخرى يستنبط العلماء هذا المقصد.

وليس هذا فقط، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يرد الصحابة عند استخدام هذه التهمة في موضعين: **الأول:** في حادثة معاذ رضي الله عنه، حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم «أفتأت أنت يا معاذ» عندما اتهم الذي انسحب من صلاة الجماعة بأنه منافق².

الثاني: حماس عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم في قطع أعناق بعض الناكبين، عندما قال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله فقد نافق، وذلك وفي حادثة حاطب بن أبي بلتعة، عندها قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه «إنه شهد بدرًا»³.

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، برقم (6103). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، برقم (60) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. كما أخرجه مالك في الموطأ (2/ 984)، برقم (1777).

1- قال القاضي عياض: قيل إن الرجل الثاني لم يكن ممن يستحق تلك المنزلة ولا كان بصفة أهلها بخلاف عكاشة، وقيل: بل كان منافقاً فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بكلام محتمل، ولم ير صلى الله عليه وسلم التصريح له بأنك لست منهم لئلا كان صلى الله عليه وسلم عليه من حسن العشرة. الفتوح 389/13. شرح النووي 361/1.

2- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

«كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ، ثم يرجع فيوم قومه، فصلى ليلة مع النبي ﷺ العشاء ثم رجع إلى قومه فقرأ بالبقرة، فانصرف رجل فصلى، فأخبر معاذ عنه فقال: إنه منافق. فلما بلغ ذلك الرجل دخل على النبي ﷺ فأخبره بما قال معاذ، فقال النبي ﷺ: أتريد أن تكون فتناً يامعاذ؟ إذا أمت الناس فاقرب "والشمس وضحاها" و"سبح اسم ربك الأعلى" و"اقرب باسم ربك" و"والليل إذا يغشى». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إذا أطال الإمام وكان للرجل حاجة فليخرج (حديث رقم 705).

3- أخرج الشيخان في صحيحهما من حديث عبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود، قال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة ومعها كتاب، فخذوه منها. فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجي الكتاب أو لتلقيني الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يُخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حاطب، ما هذا؟

قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأً مُلصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرة ولا ارتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد صدقكم.

قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.

تعطي هذه الحوادث تربية مباشرة على ضبط الألفاظ عندما تنطلق في اتجاه الآخر، لأن آثارها المؤلمة أشد وقعاً من السياط، كما أنها فرصة لنفخة الشيطان في النفس، فتندفع إلى ترك الدين أو الانتقام أو مواجهة الداعية نفسه بالنقيض. وهو ما نفهمه من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة عندما كانوا يلعنون شارب الخمر أثناء تطبيق الحد، فقال: «لا تعينوا عليه الشيطان»¹ إن اللعن وحده لا يصل إلى الملعون ما دامت صلته بالله وثيقة، فالله تعالى لا يستجيب دعوة المسلم على أخيه. لكن لفظة اللعن جانب نفسي مؤلم ينفخ فيه الشيطان؛ إما باليأس من رحمة الله، وإما بردة الفعل العنيفة.

إن الذي مرّ معنا من هذا التطبيق العملي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي أخلاق القرآن الكريم، وهي التي وصفت بها عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان خلقه القرآن»² وفي الأسطر القادمة شرح لهذا الأدب الخلقى القرآني الكريم:

المطلب الثاني: مخاطبة الأقسام

يواجه أنبياء الله تعالى عليهم السلام عنثاً شديداً في تبليغ الرسالات، وتعرض بعضهم للأذى الجسدي والمعنوي. ومع ذلك كان الخطاب الذي ينادون به أقوامهم هو: قوم. «ولم يسبق لأحدهم أن خاطب قومه بألفاظ مثل: «يا كافرون»، «يا منافقون»؛ لأن الخطاب المباشر يتجه مباشرة إلى القلب فيحرك فيه المشاعر والأحاسيس. فإن كان من النوع الذي تقبله النفس أصغوا إليه، وإن كان من نوع التجريح أعرضوا.

فالكافر الذي يؤمن بإلهه المزعوم يرى نفسه مؤمناً، ولا يقبل أن يزايد أحد على إيمانه، أو أن يُبعت تراث آبائه بالكفر. وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 53]، وكذلك في موقف قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 59]، ومن أجل هذا كان الأنبياء يستخدمون لفظة «يا قوم». «فعلن نوح عليه السلام يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 59].

قال: إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعلَّ الله أن يكون قد اطَّلع على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم. رواه البخاري (3007)، ومسلم (2494).

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن الشارب وأنه ليس بخارج من الملة، برقم (6781)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة الرجل الذي كان يُلقب بـ "حمار" وكان يشرب الخمر. وأخرجه بلفظ: «لا تُقولوا هَكَذَا، لا تُعينوا عليه الشَّيْطَانَ» برقم (6778) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

2- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، برقم (746). وأخرجه أحمد في المسند (41/ 148) برقم (24601) بلفظ: «فإن خُلِقَ نَبِيٌّ اللَّهِ ﷺ كانا لقرآن». وأخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم (11252).

وعن موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ [20] يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 20-21]. وهكذا كان خطاب جميع أنبياء الله عليهم السلام.

وحتى في العزلة، وفي خطاب الغائب، يستخدم الأنبياء هذه اللفظة أيضًا، في دلالة على الصدق مع النفس والبعد عن ازدواجية المعايير. يقول الله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79]

وهو نفس اللفظ الذي استخدمه أصحاب الكهف عندما كانوا مجتمعين يتشاورون: ﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: 15]، وعندما أفاقوا كان لفظ المدينة مجردًا من أي صفة، قال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 19].

وهنا ملحظان مهمان:

- الأول: الاقتصاد على الأوصاف الحضارية لل عمران من دون أدلجة، فقد قالوا: «المدينة»، ولم يقولوا: «ابعثوا أحدكم إلى دار الكفر والفسوق.»

- الثاني: الفصل بين الموقف الديني من البلدان وبين الانتفاع بمنتجاتها، لأن ذلك حق إنساني عام. وهذا الذي يفسر ارتياد المسلمين لأسواق الحضارات الأخرى في الشام أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك أسواق اليهود في المدينة.

يفرضوا على أنفسهم مقاطعة أو عزلة عن العالم الخارجي بتهمة كفره وإعراضه عن رسالة الله.

المطلب الثالث: مخاطبة الفرد

في القرآن الكريم أدب آخر في التخاطب مع الفرد مجردًا عن أي انتماء ديني، لأن هناك ألفاظًا تواضعت عليها البشرية في الخطاب المباشر وارتضتها النفوس خطابًا إيجابيًا محترمًا، ومحاوله استخدام أصدادها مسلك يتنافى مع الأخلاق المطلقة.

من ذلك مخاطبة إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مریم: 42]، رغم أن العلماء يذكرون أنه جده.

ومخاطبة نوح عليه السلام لولده: ﴿يَا بُنَيَّ اركب معنا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: 42]، رغم قناعته بكفره.

ومخاطبة يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوَسَّفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: 67]، رغم علمه أنهم مخطئون وأصحاب مكيدة لأخيهم، إذ قال: ﴿وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86].

إن واقع الغلو اليوم يشهد باستخدام ألفاظ منقّرة عند التخاطب مع المسلم وغير المسلم، يستعملها المتشددون في الدين. فلفظة «الصلبيون» كثيراً ما صدرت من بعض هؤلاء عند مخاطبة الغرب من غير مناسبة سياقية، ولفظة «أعداء الدين» وغيرها. لا أحد ينكر أن مجموعة من النوايا تندس وراء تعامل الغرب مع المسلمين، ولعل بعضها محاولة إعادة المشاهد الصليبية القديمة، لكننا عند الخطاب المباشر لا نحاسب النوايا، وإنما نُبَيِّن ذلك في أنفسنا، تماماً كما فعل يوسف عليه السلام مع إخوته: (فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) [يوسف: 77] بينما مضت خطته سريعة دون تعكير.

ويزداد الأمر سوءاً عند خطاب المسلمين مع بعضهم، فألفاظ مثل «الرافضة» و«النواصب» و«الخوارج» هي لغة الخطاب المباشر بين الجماعات المسلمة. ومن المؤسف أن الدول التي تضررت من الإرهاب لا تزال تردد مصطلح «الخوارج» أو «الإرهابيون» بكثرة في وسائل إعلامها؛ حتى تأسس من ذلك سياج نفسي غليظ بينهم وبين المخاطبين.

ويجب أن نفرق هنا بين اللفظ المباشر - وهو محل حديثنا - وبين الوصف الإجمالي لأي مجتمع أو فرد. ومن المقرر عند علماء الشريعة أن ألفاظاً مثل «كافر»، «منافق»، «فاسق» تعتبر مصطلحات شرعية لا يصح إطلاقها بدون فقه وحكمة. وتتدخل هنا مقاصد الشريعة لمعرفة التفاصيل.

فثمة فارق بين أن يتوجه المسلم إلى أي مجتمع بالإصلاح - وهو واجبه تجاه البشرية الهائمة - وبين أن يكون معهم في معركة حاسمة. على أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أدباً آخر في الحديث عن الأعداء، وهو عدم استخدام ألفاظ تنتقص من قدرهم بدعوى أنهم كفار؛ لأن ذلك يخطو بالمسلم خطوات خفية إلى انتهاج منهج السباب. وثانياً: يعطي إشارة خفية إلى أن النصر بسبب ضعف الأعداء لا بفضل الله.

فعند العودة من غزوة بدر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بالروحاء، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صُلِّغاً كالبدن المعقلة، فنحرنها. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «أي ابن أخي، أولئك الملائ»¹

المطلب الرابع: الألفاظ الوصفية المباشرة

من الأخلاق الكريمة مخاطبة الناس في حق أقاربهم أو أرحامهم أو من له صلة بهم بألفاظ جميلة رائعة، تحفظ عمق المودة النفسية الناشئة، وتنبه على خطأ المسلك من دون تجريح.

ومعنى هذا الكلام أن الإنسان قد يكون بعض أقاربه ابتعد عن طريق الله، فتخرج من قلبه مودته؛ إذ لا يصح مودة من حاد الله ورسوله. ولكن تبقى جوانب نفسية وشعورية مرتبطة بحق القربى، نشأت عليها النفس منذ الصغر، فمن الصعوبة شطب الإحساس بما عند الخطاب.

1- سيرة ابن هشام: ص 644 ، قال ابن هشام : الملائ : الأشراف والرؤساء .

وأيضاً فإن انتماء الإنسان إلى قبيلة أو وطن معين يبيّن شعوراً نفسياً عميقاً بالانتماء إليه والإحساس به وجدانياً، ويرتبط اجتماعياً بقيم العزة والنخوة والكرامة.

ولذلك فعندما يكون الخطاب في حق أي أحد من هؤلاء فلا بد من مراعاة هذا الجانب الشعوري، هكذا يعلمنا القرآن الكريم؛ فعندما خاطب الله تعالى نوحاً عليه السلام في ولده: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]، ولم يقل إنه كافر أو فاسق. ولك أن تتخيل رد فعل من تقول له: إن ابنك فاسق وضال، ومن تقول له: إن ابنك يحتاج إلى مزيد من التوجيه والإرشاد.

فالأول سيتكدر صفوه، حتى ولو كان من أقوى الناس إيماناً. فمعاذ رضي الله عنه عندما قال لذلك الذي انسحب من الصلاة: يا منافق، تضايق وشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يصح المراهنة على الإيمان باستخدام ألفاظ ومصطلحات شرعية.

أما الثاني، فإنك تحتفظ له بأمرين:

1. تربيته: فأنت لا تتهمه فيها وإنما تطالبه بالمزيد.

2. شعوره النفسي والوجداني تجاه ولده.

وهذا المعنى العجيب موجود في القرآن الكريم لنوح ولوط عليهما السلام في امرأتهما، فهو يستخدم لفظة «امراتك»، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود: 81]، وليس لفظة كافرة أو فاسقة. وحتى في لحظة الإعلان عن الهلاك قال الله تعالى للوط عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: 83]، ولم يقل: كانت كافرة مثلهم؛ مراعاة لشعور لوط ونوح عليهما السلام رغم أنهما نبيان.

هذا المعنى نفسه نجده في محافظة القرآن الكريم على مشاعر أمهات المؤمنين عند لحظة التخيير بين البقاء أو التسريح بإحسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَّاحًا بَجِيمًا﴾ [الأحزاب: 28]، وقال سبحانه عند الحديث عن خيار الطلاق: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5]، إيمانياً، وهو نفس الأدب الأخلاقي مع زيد وزينب رضي الله عنهما. كما أن القرآن الكريم قال «لأزواجك» ولم يقل: الناكبات أو الناكرات.

2- لم يعد سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بزوجات أبكار، رغم أهمية ذلك بالنسبة للرجل، وإنما قال «ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا» مراعاة لشعور الثيبات من نساء النبي صلى الله عليه وسلم.

3- الأكثر من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ثيبات، وليس معهن بكر سوى واحدة، وهي السيدة عائشة رضي الله عنها، ولذلك - مراعاة للشعور مرة أخرى - قدم الثيبات «ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا».

كل هذا يكشف عن أدب القرآن الكريم في مخاطبة الآخر، أيًا كان، واستخدام الألفاظ المحببة للنفس، والمحافظة على الشعور الإيجابي التفاعلي.

والنفس البشرية ليست مفطورة على حب الألفاظ الحسنة فحسب، وإنما أيضًا يُراعى شعورها حتى في مقدساتها بعد الإسلام، حتى يكتمل لديها الوعي بأهمية التغيير، وتعلم أن ذلك المسلك لم يكن صحيحًا. ففي حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما عن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس وباب يخرجون»¹

أين هذا مما تفعله الجماعات المسلمة اليوم عندما تسيطر على البلدان، فتلجأ مباشرة إلى الشطب والإلغاء، وأخذ الناس بالقوة، وإجبارهم على تقبل الأحكام؟! وذلك ما سطره المفكر الإسلامي فهمي هويدي² وهو يحاول إقناع حركة طالبان بضرورة التريث قبل تطبيق الأحكام.

1- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب العلم، حديث رقم 1586.

2- هويدي، فهمي، طالبان: جند الله في المعركة الغلط، ط. الشروق، القاهرة، 2001م، ص. (112-113)

المبحث الثالث: رسالة الداعية.

تختلف أحوال الناس وتختلف أوطانهم، فيدفع الحظ ببعض الدعاة أن يكون في مجتمع مسلم تقاصرت همته عن الله، وشرعت قوانينه في إزهاق الحياة، وتحت مسميات كثيرة تنشق حناجر الكتاب وتعلو فوق صوت الحق أصوات العتاب. وظهور الداعية في هذا العالم المسلم ليس ضرباً من الحظوظ، بل هو اختيار الله في الاختبار: اختبار للمجتمع وهو يسمع صوت الدعاة، واختبار للداعية وهو ينادي في آذان قومه بالاستجابة لله. ويجد بعض الدعاة أنفسهم في مجتمع غير مسلم، في أوروبا أو مناطق إفريقيا وآسيا. وقد تغير العالم اليوم فأصبح دولاً يربط بعضها ببعض عهود ومواثيق، وتسب كل دولة قوانين حازمة توظّر أتباعها والمقيمين فيها، وليس من المقبول سياسياً تجاوزها.

فكيف يتصرّف الداعية؟ وما هي الروح التي يحملها وهو يواجه هذه المجتمعات المختلفة؟

المطلب الأول: الداعية في العصر الحديث

ليعلم الداعية أنه غير مكلف بإكراه الناس، فسنة الله العليم الحكيم قضت بإبقاء الناس أحراراً يختارون الطريقة التي يريدون، دون أن تُسلط عليهم آلة إرهابية في تحويلهم عن اختيارهم. يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]، فالدين هو رسالة تذكير من الله لهؤلاء العباد، وحق جعله الله قبل كشف الساق يوم الحساب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذَلَ وَنُخْزَىٰ﴾ [طه: 134]، وليس هذا ازدواجاً في المعايير؛ فالله تعالى لا يبدل القول لديه. فعندما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 2-3]، فإن ذلك يعني أن الإنسان خلق حراً، تُعرض عليه الطريق المستقيم، ويحذر من الطريق المعوج: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]، وهو مجرد عرض تذكيري لا يصحبه تهديد ولا إجبار: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: 21-22]. وإنما يبقى على الداعية أن يحمل همّ تغيير الناس بالحكمة التي لا تضايقهم في الاختيار، ولا تنفرهم من الدخول في الإسلام أو الاستجابة لأمر الله. ولا يُطالب بأكثر من هذا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

وقد تبه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن تحمّل النفس همّاً أكثر من هذا قد يؤدي إلى ضرر نفسي، ويعرقل المشاريع: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: 8].

وعندما يستشعر المسلم مسؤوليته عن دعوة الناس، فليعلم أن ذلك يجب أن يتم بالحكمة؛ لأن الله تعالى يعلم من ينفع فيه أسلوب الدعوة ومن يزيغ، فلا يصح التخلي عن الحكمة مهما كان: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِنَرَبِّكَ وَأَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

إنها الحكمة التي استخدمها يوسف عليه السلام وهو ينصح السجينين عندما سنحت الفرصة لعرض أسباب الإحسان التي لاحظها عليه: ﴿تَبَيَّنَّا بَيْتًا لِيَلِيهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36].

وعندما انتهت النصيحة عاد إلى الوضع الطبيعي في علاقة الإنسان بالإنسان، دون أن تعترض تعاملهم اختيارات دينية أو فكرية؛ فطلب من أحدهما - وهو لم يُسلم بعد - أن يذكره عند ربه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]، بل الأمر أبعد من ذلك؛ فلم يطلب منه ترك العمل مع الملك أو اغتياله، على اعتبار أنه لم يكن مسلمًا.

وتلك هي صورة الحياة التي أرادها الله في تعامل البشر مع بعضهم، وإنما يبقى الدين مهيمًا على الحياة بما يحمله من القيم المطلقة التي تصنع الأفراد والمجتمعات، وبما يحمله من الخريطة الشمولية للحياة. بيد أن نقل هذه النفاسة المنهجية لا يتم إلا عبر أفراد ناهمين يمتلكون مقادير كافية من الوعي.

فإذا علم المسلم المتحمس ذلك، فعليه أن يتذكر بأن طريق الوصول إلى الآخرة هو الرحمة وليس العنف؛ الرحمة التي تدفعه إلى استبقاء حياة الإنسان إلى آخر رمق، فلعله يعرف الله ويدخل الجنة. وتلك هي الرحمة التي تنبض بها قلوب الأنبياء، فالله يصف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وأخبرنا سبحانه وتعالى أن الأنبياء يقلقون من مسألة الإهلاك، ويخافون على أقوامهم ويأسفون. فهذا إبراهيم عليه السلام يجادل في قوم لوط: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74] رغم كثرة مناكيرهم وخسة أخلاقهم.

والعجيب أن الله تعالى لم يعاتبه في هذه الرحمة، وإنما وصفه بها فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]. والأعجب أن عيسى عليه السلام في مشاهد يوم القيامة، وقد رُفعت الأفلام وجفت الصحف، لم يتقدم بطلب العذاب، بل قال: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ - ولم يقل أعداؤك - وَإِن تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

وملاحظ مماثل يسجله الله تعالى عن صالح عليه السلام وهو يسكب العبرات على قومه قبل الصاعقة: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79]. إن هذه الرحمة هي التي يُطالب بها المسلم في دعوة الآخرين والحرص على إيمانهم، دون أن تتقدم منه حركة تُفهمهم أو عنف يقضي عليهم. يقول النبي صلى الله عليه وسلم في نصيحته لمعاذ رضي الله عنه: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»¹.

1- وردت عند الإمام البخاري عدة روايات بهذا الشأن منها عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا"، ومعاذ بن جبل، قال: "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وسكنوا ولا تنفروا". رواه البخاري (69)، ومسلم (1734).

أما أن ينظر المسلم المتحمس إلى أنه مسؤول عن مصائر الناس، وهم يموتون بعيداً عن الله، ثم يدفعه ذلك إلى استبدال العنف بالرحمة في الوصول إليهم، فهو مخطئ.

المطلب الثاني: الداعية وخيار السلام والرحمة.

تناقلت وسائل الإعلام صوراً مخيفة يُقال إنها للمجموعات الإسلامية المجاهدة، يقوم فيها أحدهم بتلاوة بيان عاجل يقرّر فيه لحظة إعدام بالسلاح الأبيض أو الحرق والإزهاق. وهي صور تذكّر بما كان يفعله الأوروبيون سابقاً قبل الثورة الفرنسية بل وأثناءها، عندما كانت المقصلة والحازوق أداة الإعدام السريع. وليست هذه الطرائق بعيدة عن جفاة القلوب حيثما كانوا؛ ففي المشرق والمغرب أمم تتلذذ بالضحية، وتسجّل في طحنها أبشع الصور.

ومثل هذه الأفعال لا تكون منكّرة من غير المسلمين، فقلّما تتسلل الرحمة إلى قلوب الكافرين. وفي القرآن الكريم حكاية عن الحالة التي استحالت إليها قلوب بني إسرائيل بعد مراحل متقدمة من العصيان والإيذاء: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74]

وفي الإسلام نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التمثيل فقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»¹، ومع هذا الحديث تنضم أحاديث أخرى تنهى عن استخدام الصور البشعة في القتل. لكن المؤسف جدًّا أن يحمل بعضهم هذا النهي على التنزيه، أو يعتبره في حال عدم الجزاء بالمثل. ولا أدري لماذا يشتد نكير العلماء على نواحي سبقت مساق الكراهية والتنزيه فتحمل على التحريم، بينما هنا يكثر التردد حولها رغم وضوح المقصد. يقول ابن تيمية: «المثلة حق لهم، فلهم فعلها للاستيفاء وأخذ الثأر، ولهم تركها والصبر أفضل، وهذا حيث لا يكون في التمثيل بهم زيادة في الجهاد ولا يكون نكالاً لهم عن نظيرها. فأما إن كان في التمثيل الشائع دعاء لهم إلى الإيمان أو زجر لهم عن العدوان، فإنه هنا من إقامة الحدود والجهاد المشروع. ولم تكن القضية في أحد كذلك، فلهذا كان الصبر أفضل. فأما إن كانت المثلة حقاً لله تعالى، فالصبر هناك واجب كما يجب حيث لا يمكن الانتصار ومحرم الجزع»²

وأى أمة تبتعد عن هدى ربها وتفترض أن وحشية القتل وسيلة لردع العدو، فإنها تعبر بذلك عن الجانب الحيواني في الإنسان، عندما تجف منابع الهدى وتغيب شمس الرحمة.

يقترّب ذو القرنين من منطقة السدّين، وكان جيشه يغطي مساحات الأرض، وينشر رايات السلام والرحمة، فتشرّب إليه أعناق المظلومين وتخطّبه الشعوب التي يمرّ عليها بإقامة العدل فيها. ويأتي أقوام لا يكادون يفقهون

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، برقم (1731). وأخرجه أحمد في المسند (35/ 249) برقم (21303). وأبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، برقم (2612). والترمذي في السنن برقم (1408). وابن ماجه في السنن برقم (2858). جميعهم من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

2- ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ص. (219-220)

قَوْلًا: (قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) [الكهف: 94]

كان يمكن لهذا القائد العظيم، وهو يستمع إلى هذه الشكوى المؤلمة، أن يفرد جناحيه بالغضب، وأن يطلب على الفور تدمير العدو الداهم ووضع نهاية سريعة للظالمين. لكن هذه الأقوام تقدمت بطلب بناء السد فقط. هل كانت خائفة من المستقبل أم كانت لا تعرف قوة ذي القرنين؟ الواقع أن الإيغال في التحليل أكثر من الظاهر لا يؤدي إلى نتيجة. لقد تقدمت ببناء السد فقط فوافق ذو القرنين: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) [الكهف: 95]

ومن هنا نستنتج أمرين، لعلهما يساهمان في وضع سياسة شرعية للمجموعات المسلمة المقاتلة، فالرغبة في إراقة الدماء ليست إرادة ربانية:

1. لم يطلب ذو القرنين مدهامة العدو والقضاء على يأجوج ومأجوج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»¹

والتذليل بالسيوف ليس فيه دعوة إلى نشر الإسلام بالسيف، لأن ذلك يختلف مع مقصد الحديث، إذ لا اتفاق بين عدم سؤال القتال وطلب العافية وبين النشر بالسيف. وإنما الحديث يشير - في رأيي - إلى أن الجهاد إذا وجب، وكان المسلم في مواجهة عدوه، فلا يصح التناقل والهرب بحجة سؤال العافية. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) [التوبة: 38]

2. كلما كان طريق المفاوضات هو الأقرب إلى حقن الدماء؛ بادر إليه العاقل، واختاره الغيورون على أمتهم وأوطانهم. ولذلك عندما وصلت رسالة سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ، استشارت قومها، وكانوا أقباء، فقالوا: (نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) [النمل: 33].

لكن المرأة العاقلة تعلم أن الدخول في مغامرة من هذا النوع ستكون له نتيجتان:

○ الأولى: تدمير البنية التحتية: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا) [النمل: 34]

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذ الميقات لأول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، برقم (2965)، وباب لا تمنوا لقاء العدو، برقم (2966). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، برقم (1742) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

○ الثانية: إهانة كرامة المواطنين وتشيت أحوالهم: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: 34]

هذه النظرة العاقلة أيدها ربنا سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 34].

فاختارت طريق المفاوضات: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 35].

وإني أظن أن تلك الرحمة التي قدمتها حفاظاً على حضارتها وقومها هي التي قادتها إلى الإسلام؛ لأن سليمان عليه السلام قرر إحضار عرشها وتنكره: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 38]

فلما دخلت: ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: 42]، ثم تراجعت أمام عظمة الله، فاحتفظت بعزتها كملكة فلم ينحن لها رأس، وأعلنت إسلامها لله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: 44]

وفي ذلك ثلاثة ملاحظ:

الأول:

1- نجاح سليمان عليه السلام في تعريف المرأة بالله، وأن هذا السلطان الكبير ما هو إلا نعمة من الله، وهو رحمة بالخلق، فعرفت الله فأسلمت.

2- نجاح الملكة في الاحتفاظ بعزة قومها حتى يكون دخولهم في دين الله طوعية لا إكراها، أو توقع التأثير على الملكة. وهي نفس ملاحظة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك، حيث كان يعد كل واحد منهم أن يظل ملكاً على قومه وبلده.

وهذه النفسية المؤمنة التي تعرّف الناس بالله من خلال أعمالها البطولية والعلمية هي التي تؤدي رسالتها الربانية بشكل صحيح. فمرة أخرى يقرر ذو القرنين أن القوة البنائية للسد توفيق من الله: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98].

وهكذا يفعل يوسف عليه السلام عندما لاحظ إعجاب السجينين به، فتقدّم لتعريفهما بمصدر ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: 37].

أما أولئك الذين يعرفون الناس بأنفسهم، ويسلطون الأضواء على قوتهم وسلطانهم، فليسوا من الله في شيء، وإن زعموا أنهم يدعون بذلك إلى الدين ويعرفون بالإسلام وقوته؛ لأن ذلك سيؤدي إلى نفور الناس من الدين وانقلابهم عليه. وهذا هو الذي وقع فيه أهل الكتاب قديماً وحديثاً؛ فأما قديماً فيقول الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة: 79]

وأما حديثاً، فإن أوروبا قررت إقصاء الدين بعدما اتضح لديها عدم قدرته على إدارة شؤون الحياة، وتحالف رجاله مع الإقطاعيين والنبلاء، واستخدام الدين لسوق الناس طوعاً أو كرهاً لطاعة الحكام الظالمين.

الثاني:

كانت المرأة - ملكة سبأ - تدرك مكانة حضارتها بين الأمم، وقوة قومها الضاربة: ﴿نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: 33]، وإعلانها المعرفة بالله رسالة إلى قومها أن الإسلام لحظة سلام وليست استسلامًا، فيؤدي ذلك إلى تأثرهم بها واقتناعهم بدين الله. وفي ذلك أيضًا ملحظان:

أ- أن الإنسان إذا أسلم فلا يصح له الانقلاب على وطنه والدعاء عليه بالنكال، وجعل الولاء للفكر مضادًا للولاء للوطن؛ لأن ذلك نوع من الفساد. فقد جاء الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إن دوسًا عصت وأبت، فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس! فقال النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم اهد دوسًا وائت بهم»¹

ب- الإسلام يعني الرحمة؛ وحالما أسلم الإنسان تعاضمت فيه الرحمة على قومه، فاشتهى إسلامهم، وبذل في ذلك جهدًا يقترب فيه من قلوبهم، ويأسى على تقصيره في إقناعهم. فهذا صاحب القرية عندما جاء لنصرة الأنبياء: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى...﴾ [يس: 20]، تكالب عليه قومه فقتلوه، وهي لحظة جعلها القرآن الكريم ثابتة في المشهد المتسارع، ثم عاد ليخبرنا أن الرجل انتقل إلى الجنة مباشرة - وهكذا هم الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون - فقالت له الملائكة: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: 26]، كان في تلك اللحظة يتمنى أن يعلم قومه هذا النعيم وأن يصلوا إلى معرفته. فله ما أعظمها من نفس وما أقواها من رحمة: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: 26-27].

نفس هذه الرحمة تحدثنا بها السيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يعود من الطائف وقد رماه صبيانها وسفهاؤها، فينزل عليه ملك الجبال فيقول «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»²

أما هذه الجماعات التي تعشق مدهامة الناس وسفك دمائهم عن طريق السيارات المفخخة التي تحصد الصغير والكبير والرجل، فإن هذا مسلك منكر لا يتفق مع عدل الشريعة في معاقبة المعتدي دون غيره، أو أخذ الآخرين بأوزار غيرهم. يقول سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]، وفي فتح مكة رأى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جمهرة من الصحابة أمرًا غريبًا، فاقترب منهم

ليرى امرأة مقتولة، فقال: «ما كانت هذه لتقاتل»³

1- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة دوس والطفيل بن عمرو الدوسي، 5/ 144، برقم 4392.

2- حلية الأبرار: 305

3- عن رباح بن ربيع: { أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد، فمر رباح وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها، يعني وهم يتعجبون من خلقها حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته فأفرجوا عنها، فوقف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما كانت هذه لتقاتل فقال لأحدهم: الحق خالدًا فقل له: لا تقتلوا ذرية ولا عسيما { . رواه أبو داود (2669) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد تناول عدد من العلماء هذه النازلة من الناحية الشرعية، فترددت آراؤهم حول المصلحة المتعارضة مع قتل النفس. إلا أن المتتبع لمناط المبيحين يعلم أنهم يقصدون جيش العدو المقاتل¹، وليس جماعة الناس في السوق أو المطاعم أو التجمعات البشرية. ورغم اختلافنا مع الآراء المبيحة، إلا أن الذي يحصل اليوم لا تشمله كلمة المبيحين، لأن النازلة هنا مختلفة تمامًا، ولا يصح القياس عليها؛ فضلاً عن أنه لا يصح القياس على الفرع أيضاً كما هو رأي الجمهور - عدا المالكية - على أن هذه التصرفات لا تتحقق فيها العلة المماثلة.

ومما أعجبني هو وصول العلماء المتأخرين إلى حكم مستنبط لمثل هذه الحوادث من قوله تعالى في معرض ذكره سبب منع القتال أيام الحديبية: (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حَيْلَهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَرِيسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمَتَّعَلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَوُصِّيَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [الفتح: 25]؛ فلأن بين جموع الكافرين عدداً من المسلمين الأبرياء لا يعرفهم إخوانهم، صرف الله المسلمين عن القتال، وجعل قداسة النفس فوق مصلحة نشر الدين على حسابها. يقول القرطبي في ذكر فوائد هذه الآية: «هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: رأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسرى في أيديهم، أيُحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعت مالكاً وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنزمت في مراكبهم بالنار ومعهم الأسرى في مراكبهم؟ فقال مالك: لا أرى ذلك، لقوله تعالى لأهل مكة: «لو تزييلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً». وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجوز رميه. وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحداً من المسلمين فعليه الدية والكفارة. فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة، وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم. فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا»²

الثالث:

إن الرغبة في إزهاق الأرواح والإكثار منها ليست مقصداً شرعياً، ولا إرادة ربانية. فكلما كانت الفرصة سانحة للتقليل من قتل الناس واستبقائهم أحياء، أسرع إليها المسلمون واعتمدوها في تعاملهم مع الآخر، بدءاً باستبقاء الذين لا يعتدون أو يقاتلون:

1- يقول ابن تيمية: " وَهَذَا جَوَزُ الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ أَنْ يَنْعَمَسَ الْمُسْلِمُ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ وَإِنْ عَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُمْ يُقْتُلُونَهُ ؛ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَفْعَلُ مَا يُعْتَقِدُ أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الْجِهَادِ مَعَ أَنَّ قَتْلَهُ نَفْسُهُ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ لِغَيْرِهِ : كَانَ مَا يُفْضِي إِلَى قَتْلِ غَيْرِهِ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِدَلِّكَ وَدَفَعِ ضَرَرَ الْعَدُوِّ الْمُفْسِدِ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا الَّذِي لَا يَنْدَفِعُ إِلَّا بِدَلِّكَ أَوَّلَى " الفتاوى ج 28 / 540.

2- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، ج 16 ص 261 . تفسير سورة الفتح

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8]

وانتهاءً باحترام العهود والمواثيق التي تفرض تحاجراً بين الناس، فالعهود كأنها جدر تمنع الناس من الاعتداء على بعضهم البعض. ولذلك نجد أن الإسلام يُعلي من شأنها ويدعو إلى احترامها، حتى ولو كانت الفرقة المستضعفة مسلمة في وسط مجتمع كافر. يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ التَّصَرُّؤُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72]، ويقول سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...﴾ [النساء: 89-90].

ومن هنا نجد أن الحروب التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين تعدّ أقل الحروب خسائر في الأرواح. ففي غزوة بدر، وهي أول غزوة في الإسلام، شهدها خمسة آلاف من الملائكة، وحازت على رعاية ربانية دقيقة حتى إن الله تعالى سماها الفرقان، في دلالة على بداية افتراق الطريق بين الإيمان والكفر: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّمَيِّ الْجُمُعَانَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

ومع كثرة الملائكة المشاركين، قُتل من المشركين سبعون فقط، رغم أن عددهم بين (900-1000). وكان يمكن للنظرة السطحية الساذجة أن تقرر فناءهم جميعاً حتى تكون فرصة للمسلمين في الدخول المبكر لمكة، وبداية فتح الطريق للإسلام. لكن الله تعالى لا يريد أن ينشر دينه فوق جثث الخلق، إنما يريد أن يقطع الرؤوس التي منعت وصوله إلى الآخرين: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: 127].

وفي دراسة أجراها الدكتور راغب السرجاني، وجد أن عدد القتلى من المشركين في جميع معارك النبي صلى الله عليه وسلم على مدى عشر سنوات لم يتجاوز (1022) قتيلاً¹.

1- يقول الدكتور راغب السرجاني في موقعه الإلكتروني: " لقد قمت بإحصاء عدد الذين ماتوا في كل غزوات الرسول وحرابه صلى الله عليه وسلم، سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء، ثم قمت بتحليل لهذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، فوجدت عجباً!! لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك على مدار عشر سنوات كاملة، 262 شهيداً، وبلغ عدد قتلى أعدائه صلى الله عليه وسلم 1022 قتيلاً، وقد حرصت في هذه الإحصائية على جمع كل من قُتل من الطرفين حتى ما تم في حوادث فردية، وليس في حروب مواجهة، كما أنني حرصت على الجمع من الروايات الموثقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أُنجنب المبالغات التي يقع فيها بعض المحققين بإيراد الروايات الضعيفة التي تحمل أرقاماً أقل، وذلك لتجميل نتائج غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم! وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين 1284 قتيلاً فقط!! ولكي لا يتعلل أحد بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة ولذلك جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمت بإحصاء عدد الجيوش المشتركة في المعارك، ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد الجيوش، فوجدت ما أذهلني!! إن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ 1% فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم 2%، وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي 1.5% فقط! إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت 25 أو 27 غزوة، و38 سرية، أي أكثر من 63 معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر

فإذا كان هذا مع المشركين، وبمشاركة الملائكة عليهم السلام، فكيف يمكن القول في الجماعات الإسلامية التي تتباهى بقتل أكبر عدد من إخوانها المسلمين لمجرد الخلاف في المذهب، أو لمضايقتها قيام الدول الإسلامية المنشودة؟! إن هذا لشيء عجاب!

فقد قمت بإحصاء عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية - كمثال لحروب "الحضارات" الحديثة - ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالقياس إلى أعداد الجيوش المشاركة في القتال، فصدُمتُ بمفاجأة مذهلة!!! إن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضارية بلغت 351%!!! راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ط. دار أقلام، القاهرة، ص. (37) .

الخاتمة:

بعد تناول ظاهرة الغلو في الخطاب الدعوي من خلال تحليل نصوص قرآنية ونماذج من الخطاب النبوي، ومقارنتها بطرائق الخطاب المعاصر لبعض الجماعات الدينية، يتبين أن جوهر الإشكال لا يكمن في النصوص الشرعية ذاتها، بل في طريقة توظيفها لغويًا وسلوكيًا في الخطاب الموجّه للذات والآخر. وقد أظهر البحث أن الخطاب الدعوي حين يفصل عن مقاصد الشريعة، ويفتقر إلى أدب التوجيه، يسهم في تغذية مظاهر التطرف وتعميق الفجوة بين الدعوة ومخاطبيها. كما أكدت النتائج أن كثيرًا من حالات الغلو تبدأ من انزلاق لغوي في المصطلح الدعوي، يتحول إلى انحراف مفاهيمي وسلوكي. ومن هنا، فإن إصلاح الخطاب الديني لا يعني تغييب النصوص، بل إعادة قراءتها بمنهج مقاصدي راشد، ولغة تتسم بالحكمة والرحمة والتدرج.

المقترحات:

1. إعادة تأهيل الدعاة لغويًا ومقاصديًا، وتدريبهم على استخدام خطاب متزن يتماشى مع فقه المرحلة ومقاصد الشريعة.
2. إدراج مقررات "فقه الخطاب" و"أدب الدعوة" ضمن مناهج كليات الشريعة والدعوة، مع ربطها بنماذج قرآنية ونبوية تطبيقية.
3. ضبط المصطلحات الشرعية المستخدمة في الإعلام الدعوي، وتجنب الألفاظ الإقصائية أو التكفيرية التي تفتقر للضوابط العلمية.
4. إطلاق مبادرات بحثية وميدانية لرصد تأثير الخطاب الدعوي على فئات الشباب، وخاصة في البيئات المعرضة للتطرف.
5. تعزيز حضور فقه التدرج والمقاصد في منابر المساجد والمنصات الرقمية، وتقديم نماذج دعوية ناجحة تتسم باللين والحكمة.

إنشاء مرصد لغوي-دعوي لمراجعة وتوجيه الخطاب الديني في الفضاء العام، بالتعاون مع الجهات الأكاديمية والشرعية..

REFERENCES (المصادر والمراجع)

- [1] **Ahmad ibn Hanbal**. (2001). *Musnad al-Imam Ahmad ibn Hanbal* [The Musnad of Imam Ahmad ibn Hanbal] (S. al-Arna'ut et al., Eds.). Mu'assasat al-Risalah.
- [2] **Al-Bukhari, M. I.** (1893). *Sahih al-Bukhari* [The Authentic Collection of al-Bukhari]. al-Matba'ah al-Kubra al-Amiriyah.
- [3] **Al-Ghazali, M.** (n.d.). *JaddidHayatak* [Renew Your Life]. Dar NahdatMisr.
- [4] **Al-Hakim al-Nisaburi, M. A.** (1990). *Al-Mustadrak 'ala al-Sahihayn* [The Supplement to the Two Sahihs] (M. A. Ata, Ed.). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- [5] **Al-Qardawi, Y.** (1988). *Al-Sahwah al-IslamiyyahwaHumum al-Watan al-Arabi wa al-Islami* [The Islamic Awakening and the Concerns of the Arab and Islamic Nation]. Mu'assasat al-Risalah.
- [6] **Al-Qardawi, Y.** (2001). *Al-Sahwah al-Islamiyyahbayna al-Juhudwa al-Tatarruf* [The Islamic Awakening between Rejection and Extremism] (3rd ed.). Dar al-Shorouk.
- [7] **Al-Qurtubi, M. A.** (n.d.). *Al-Jami' li-Ahkam al-Qur'an* [The Compendium of Quranic Rulings] (Vol. 16). Dar al-Fikr.
- [8] **Al-Sa'di, A. N.** (2000). *Taysir al-Karim al-Rahman fi Tafsir Kalam al-Mannan* [Facilitation from the Most Generous and Merciful in the Interpretation of the Word of the Benefactor] (A. al-Luwayhiq, Ed.). Mu'assasat al-Risalah.
- [9] **Al-Sarjani, R.** (n.d.). *Qissat al-Tatar min al-Bidayahila 'Ayn Jalut* [The Story of the Tatars from the Beginning to Ain Jalut]. Dar Aqlam.
- [10] **Al-Tirmidhi, M. I.** (n.d.). *Sunan al-Tirmidhi* [The Sunan of al-Tirmidhi] (A. Shakir et al., Eds.). Maktabat Mustafa al-Babi al-Halabi.
- [11] **Bahlul, N.** (n.d.). *Al-Mawsu'ah al-Kubra li-l-Jama'at al-Islamiyyah al-Musallahah* [The Grand Encyclopedia of Armed Islamic Groups].
- [12] **Howeidi, F.** (2001). *Taliban: Jund Allah fi al-Ma'rakah al-Ghalat* [Taliban: Soldiers of God in the Wrong Battle]. Dar al-Shorouk.
- [13] **Ibn Hibban, M.** (1993). *Sahih Ibn Hibban* (S. al-Arna'ut, Ed.). Mu'assasat al-Risalah.
- [14] **Ibn Hisham, A. M.** (n.d.). *Al-Sirah al-Nabawiyyah* [The Biography of the Prophet] (M. al-Saqqa et al., Eds., Vol. 2). Maktabat Mustafa al-Babi al-Halabi.
- [15] **Ibn Taymiyyah, A. H.** (n.d.). *Al-Sarim al-Maslul 'ala Shatim al-Rasul* [The Drawn Sword Against the Insulter of the Messenger] (M. M. Abd al-Hamid, Ed.). Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- [16] **Ibn Taymiyyah, A. H.** (2004). *Majmu' al-Fatawa* [The Collected Fatwas] (A. ibn Qasim, Ed., Vol. 28). King Fahd Complex for the Printing of the Holy Quran.
- [17] **Malik ibn Anas.** (2004). *Muwatta al-Imam Malik* (B. Awad, Ed.). Mu'assasat al-Risalah.
- [18] **Muslim ibn al-Hajjaj.** (n.d.). *Sahih Muslim* (M. F. Abd al-Baqi, Ed.). Dar Ihya al-Kutub al-Arabiyyah.
- [19] **Al-Nasa'i, A. S.** (1991). *Al-Sunan al-Kubra* [The Major Sunan] (H. S. Shalabi, Ed.). Mu'assasat al-Risalah.
- [20] **Al-Nawawi, Y. S.** (1972). *Al-Minhaj Sharh Sahih Muslim* [The Methodology: Commentary on Sahih Muslim]. Dar Ihya al-Turath al-Arabi.
- [21] **Rida, M. R.** (n.d.). *Tafsir al-Manar* [The Al-Manar Interpretation of the Quran]. General Egyptian Book Organization..

TRANSLITERATION

a. Consonant

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
ء	‘	فَأَرْ	fārun
أ	(a,i,u)	أَحْكَام	aḥkām
ب	b	بَابُ	bābun
ت	t	تَمْرٌ	tamr
ث	th	ثَلَاثٌ	thalātha
ج	j	جَبَلٌ	Jabal
ح	ḥ	حَدِيثٌ	ḥadīth
خ	kh	خَالِدٌ	khālid
د	d	دِينٌ	dīn
ذ	dh	مَذْهَبٌ	madhhab
ر	r	رَاهِبٌ	rāhib
ز	z	زَكِيٌّ	zakī
س	s	سَلَامٌ	salām
ش	sh	شَرِبَ	sharaba
ص	ṣ	صَدْرٌ	ṣodrun
ض	ḍ	ضَارٌ	ḍār
ط	ṭ	طَهَّرَ	ṭahura
ظ	ẓ	ظَهَرَ	ẓohr
ع	‘	عَبْدٌ	‘abdun
غ	gh	غَيْبٌ	ghayb
ف	f	فَاتِحَةٌ	Fātihah
ق	q	قَبَسٌ	qabas
ك	k	كِتَابٌ	kitāb

ل	l	لَيْلٌ	layl
م	m	مُنِيرٌ	munīr
ن	n	نِقَابٌ	niqāb
و	w	وَعَدٌ	wa ^ʿ ada
هـ	h	هَدَفٌ	hadaf
ي	y	يُوسُفُ	Yūsuf

b. Short Vowel

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
اَ	a	كَتَبَ	kataba
اِ	i	عَلِمَ	ʿalima
اُ	u	عُلِبَ	ghuliba

c. Long Vowel

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
اَ ، اِ ، اِو	ā	عَالَمٌ ، فَتَى	ʿālam , fatā
اِي	ī	عَلِيمٌ ، دَاعِي	ʿalīm , dāʿī
اُو	ū	عُلُومٌ ، أُدْعُو	ʿulūm , ʿudʿū

d. Diphthong

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
أَوْ	aw	أَوْلَادٌ	aulād
أَيَّ	ay	أَيَّامٌ	ayyam
إِيَّ	iy	إِيَّكَ	iyyāka